

أسلوبية التضاد في الخطاب القرآني - التضاد اللفظي والصوري للألوان أنموذجا-

The stylistic contrast in Qur'anic discourse - the verbal and graphic contrast of colors as a model

هارون مجيد¹

¹جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف - (الجزائر) البريد الإلكتروني: majd1221@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2020/12/10

تاريخ القبول: 2020/12/05

تاريخ الاستلام: 2020/11/02

الملخص:

إن للتضاد قيمة سياقية تشكل خلخلة في بنية اللغة استنادا على التصادم الكفيل بإيقاظ المتلقي وشد انتباهه ، وهو من المسوغات الأسلوبية التي أختلف كثيرا في تحديد ماهيتها نظرا لرتبوية الاستعمال ، لكن تلتف جل التعاريف و تتفق في كونه (الجمع بين الشيء وضده..) أي أنه يعمل على ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده ، ونلفيه في القرآن الكريم (يجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل ، فلا يجيء باسم مع فعل، ولا بفعل مع اسم كقوله تعالى بعد باسم الله الرحمن الرحيم : ﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا ۖ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ سورة ﴿٢﴾ ، إذ تسهم ظاهرة التضاد اللوني في رسم معاني القرآن الكريم وتقريب الصورة، كما أنه قد يكون من المتضادات ما يحمل التعاقب والتكامل، بل وحتى الانسجام في أحيان أخرى شريطة التشابه والتجانس في الألوان أو التضاد القوي، وذلك وفق محاور ثلاث (نماذج تطبيقية توضيحية من آي القرآن الكريم) :

- 1- تضاد الألفاظ : مثل التضاد بين اللونين الأبيض والأسود ، والليل والنهار ، الحي والميت ، الظلمات والنور.
- 2- تضاد الصور : وهو التقابل بين الصور الفنية مثل الأرض المحضرة والأرض البياب ، الدنيا زينة والآخرة عذاب .
- 3- التقابل المشهدي في صور النعيم والعذاب: وجوه ناضرة و وجوه باسرة ، وجوه مسفرة و وجوه

مستبشرة.

الكلمات المفتاحية : التضاد، الصورة، الخطاب القرآني، التقابل.

Summary:

The contradiction has a contextual value which constitutes an imbalance in the structure of the language based on the collision which guarantees the awakening of the recipient and attracts his attention, and it is one of the stylistic justifications which differ greatly in the determination of it. , but most definitions circumvent and agree in being (the combination of something against the same ...), and we list it in the Holy Quran (by combining the opposites with the consideration for contrast, so it does does not come a noun with a verb, nor a verb with a noun because the phenomenon of color contrast helps to draw the meanings of the Holy Quran and to come closer to the image, as it can be Among the contradictions there is this which carries the succession, the complementarity, even the harmony in other times, on condition of resemblance and homogeneity of the colors or of strong contrast, according to three axes (practical and explanatory models from the Noble Cora not:(

-Contradictory words: like the contrast between white and black, night and day, the living and the dead, darkness and light.

-Contrast of images: which is the contrast between artistic images, like a green earth and a dry earth, the world is adornment and the hereafter is torture.

-The contrast of the scenes in happiness and torment: fresh faces, and others not. and optimistic faces....

مقدمة:

ينبهر المتأمل للطبيعة لما فيها من بديع الخلق، فيطرب قلبه لجمالها وجلالها متأثراً بها وبألوانها وبكل شيء يوحي بعظمة خالقها. فالألوان لم تقتصر على كونها تدرس في الطبيعة فقط ، بل كَلَّت آيات القرآن ووشحتها وزينتها كما يزين التاج العروس فسلطت الأضواء على آي القرآن بأسلوبية معجزة ، فلفظ اللّون ورد في القرآن الكريم بمعانٍ مختلفة كالصّفة أو الهيئة أو الجنس أو الصنف في مواضع عدة، فاللّون سلم يتفاعل في ثنايا آي القرآن باعثاً بإشعاعه السّاطع على الواقع كله ، و هكذا تلتقي لفظة اللّون عند سمة واحدة و هي استحضار الدلالات المختلفة للفظ اللّون وفق أساليب مختلفة . فمن هذه الإطلالة السريعة

على لفظ اللون يتضح لنا دوره الفاعل في كثير من المجالات الجمالية والدلالية والتفسيّة ، فمن اللفظ يفهم المعنى ضمن سياق الجملة مؤدياً وظائف مختلفة تتراوح بين الجمالية والرمزية والحسية والتعبيرية و التزيينية، وربما هناك وظائف أخرى نجهلها، لذا آثرنا ولوج جنبات بحثنا المتواضع بأول فرع من فروع التضاد اللوني ألا وهو اللفظي

• التضاد اللوني اللفظي (الصريح): الألوان المشخّصة :

من خلال الإطالة السريعة على معنى التضاد اللوني يتضح لنا دوره الفاعل في كثير من المجالات الجمالية والدلالية والتفسيّة فمن اللفظ يفهم المعنى ضمن سياق الجملة مؤدياً وظائف مختلفة تتراوح بين الجمالية والرمزية والحسية والتعبيرية والتزيينية ، وربما هناك وظائف أخرى نجهلها (وإننا نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنّها اختيرت اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز... فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع وافيةً لتجارب الجميع ، ملائماً لأذواق الجميع، متفقاً و معارف الجميع)1 . وسنورد بعض الألوان المتضادة صراحة ودلالاتها في القرآن الكريم وفق درجات حضورها ضمن الترتيب الآتي:

1. التضاد اللوني بين الأبيض والأسود : يرد اللفظ اللوني الصريح بين دفات الكتاب المعجزة كثيرا وعلى رأسه الأبيض الذي يكتسب دلالات عدة في أحد عشر موضعاً (فبعضه ورد لمعناه الحقيقي و البعض الآخر رمزاً للصفاء و النقاء أو رمزاً للفوز في الآخرة نتيجة العمل الصالح في الدنيا)2، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ . فطوبى لمن ابيض وجهه يوم الفصل العظيم . وفي هاتين الآيتين اللتين التقى فيهما مقصد واحد وهو إبراز مظاهر البشر واستدل عليها بالبياض ، ومظاهر الشقاء والتعاسة والاكفهرار والتي استدل عليها بالسواد، (فهما يساقان مساقاً واحداً كأثهما حاضران في الزمان يتبادلان التقديم والتأخير)4. ولنا أن نركز على مظاهر البشر والصفاء والعاقبة الحسنة وذلك يوم القيامة (فحين يبعث المؤمنون من قبورهم تكون وجوههم مبيضة فإذا قرأ المؤمن كتابه فرأى فيه حسناته استبشر و ابيض وجهه)5، أما من وصفت وجوههم يومئذ بالسواد فهذا نتاج أعمالهم السيئة ونعت الوجه بالسواد دوناً عن سائر أعضاء الجسد الأخرى كون الوجه يكتسب خاصية مرئية أي أنّه مرآة عاكسة لما يعتمل في طيات النفس البشرية، فإن كان الإنسان فرحاً ظهرت تباشير الفرح على وجهه وإن كان حزيناً مهموماً اكفهر وجهه وتبدلت ملامحه لتدل على ما هو عليه من سوء حال.

ومن الآيات التي لمسنا فيها اللون وهو يؤدي وظيفة غير وظيفته الإيقونية الطبيعية وينسلخ عن دلالاته ليؤدي وظيفة أخرى وهي إيضاح المواقيت وذلك في قوله تعالى في الآية 187 من سورة البقرة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. (يعني نور الصبح من ظلمة الليل وفي حديث آخر وهو جبل الله المتين أي نور هُدهد) 6، فنزلت هذه الآية لتنتهي الجدل بين الذين اختلفت عليهم المواقيت، فعندما يظهر الخيط الأبيض من الأسود يستهل الفجر ويخرج من ظلمة الليل الحالك، فاللون الأبيض هنا جيء به للتدليل على الوقت. فاللون الأسود انزاح فيها عن المؤلف من "حزنٍ وهمٍ وكآبةٍ" إلى الفصل في بيان الليل من النهار ويفصل كل هذا قول الرسول "إنما هو سواد الليل وبياض النهار ... وسمي الفجر خيطاً لأن ما يبدو من البياض يرى ممتداً كالخيط" 7. فيعتبر اللون الأسود هنا إيجابياً.

أما في قوله تعالى 8: ﴿... وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ﴾. فلقد دلّ هنا على عظمة الله وقدرته على الخلق والإبداع فهو قادر على كل شيء، ففي (قوله تعالى وغرايب سود، فالغرايب الجبال الطّوال السّود وكذا قال أبو مالك عطاء الخرساني وقتادة، وقال ابن جرير والعرب إذا وصفوا الأسود قالوا أسود غريب... 9، فيتجلى لنا من هذه الآية بصمات تدل على القدرة الربانية التي تحيط بنا من كل جانب لتنبهنا عمّا في الكون من رتبة وتناسق مذهل، فكل شيء يسبح بحمده سبحانه وما الغرايب السّود إلّا لون جديد في لوحة فنية محكمة الإبداع .

● ملخص مقارنة بين الدلالات المتضادة للونين الأبيض والأسود:

اللون	دلالاته الإيجابية	دلالاته السلبية
الأبيض	<ul style="list-style-type: none"> ● الصّفاء ● النّقاء ● البشر ● حسن العاقبة ● الرّاحة يوم القيامة ● الجزاء: الفوز بالجنة 	<ul style="list-style-type: none"> ● الانزباح المؤلف للدلالة على الحزن و الغيظ و الأسف.
الأسود	<ul style="list-style-type: none"> ● ميقات من مواقيت الصّلاة 	<ul style="list-style-type: none"> ● مآل الكفار يوم القيامة (التعب والشقاء)

<ul style="list-style-type: none"> ● الدلالة على سوء العاقبة ● الجزاء وهو النَّار. ● يشير إلى الخوف من المجهول. ● التشاؤم والحزن . 		
--	--	--

2. التضاد اللوني بين الأخضر والأصفر:

يعتبر الأخضر حلّة الطبيعة العنّاء ولون الخصب والبعث والنّماء والبهاء، ويعدّ بشرى للمتقين في الجنات العلى. إذ ورد في القرآن ثمانية مرات وفق دلالات مختلفة ، أما الأصفر فهو لون فصل من فصول الحياة ماثلاً في الخريف، إذ يعد رمزاً للغيرة والذبول وتأجج المشاعر، فقد وردت مادة الصّفرة في القرآن الكريم خمس مرات مع تنوع جدائل الآيات التي وردا فيها كالآتي :

أولاً: قوله تعالى 10 : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ لِيِّ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾

ثانياً: قوله تعالى 11 : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصّٰدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

عبر جدائل هذه الآيات نستكشف دلالات اللونين الأخضر والأصفر فيها باعتبارهما عنصرا فعالان في هذه الحياة إذ أنّ معجزة يوسف عليه السّلام تفسير الرؤى، وما رآه دالّ على الخصب والنّماء وسنين الخير مقابل القحط والجفاف، وجاء هذا في خضم حلم الملك فطالب بتفسير رؤياه حيث قال للنبي يوسف عليه السّلام (أحب أن أسمع رؤياي فقال يوسف: نعم أيها الملك رأيت سبع بقراتٍ سمان شهباً غراً حساناً كشف لك عنهن النيل فطلعنا عليك من شاطئه تشخّب أخلافها لبناً فبينما أنت تنظر إليهن ولتتعجب من حسنهن إنّ نضب النيل فغار ماؤه وبدا أسه فخرج من حمله ووحله سبع بقرات عجاف شعث غير مقلّصات البطون ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف لهنّ أنياب وأضراس، وأكف كأكف الكلاب وخراطيم، واختلطن بالسّمان فافترسنهنّ فأكلن لحومهنّ ومزّقن جلودهنّ، فبينما أنت تنظر وتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل ثمّ لم يظهر منهنّ سمن ولا زيادة بعد أكلهن. إذ سبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء وإلى جانبهنّ سبعٌ يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد

عروقهن في الترى ظاهراً، فبينما أنت تقول في نفسك أي شيء هذا هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد)12.

ثالثاً : قوله تعالى13: ﴿أَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى14: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ .

تتضمن الأولى في جنباتها دلالة لونية تدرجية من الأخضر إلى الأصفر وصولاً إلى السواد ، فالزرع يكون مخضراً ومن ثم يهيج فتراه مصفراً ومن بعد ذلك يبس ليكون قابلاً للحصاد، وما تبقى من الحطام من حشيش أو تبين تنتفع به الدواب، ويفسر الطبري (قال ثم أنبت بذلك الماء الذي أنزله من السماء فجعله في الأرض، عيوناً زرعاً مختلفاً ألوانه يعني أنواعاً مختلفة من حنطة وشعير وسمسم أرز... ثم يهيج فتراه مصفراً.. يقول ثم يبس ذلك الزرع من بعد خضرته، يقال للأرض إذا يبس ما فيها من الخضرة وهاجت الأرض وهاج الزرع. وقوله فتراه مصفراً يقول فتراه من بعد خضرته ورطوبته قد يبس فصار أصفراً وكذلك الزرع إذا يبس اصفر ثم يجعله حطاماً والحطام فئات التبن والحشيش)15. فالدلالة اللونية هنا اتخذت معنى آخر ماثلاً في المنفعة والفائدة للإنسان والحيوان وهذا ذكرى لأولي الألباب. و من خلال الآية التي تليها من سورة الحديد (فالقول في تأويل قوله تعالى: اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب وهو زينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ... وقوله ثم يكون حطاماً يقول تعالى ذكره ثم يكون ذلك النبات حطاماً يعني به أنه يكون نباتاً يابساً وفي الآخرة عذاب شديد للكفار. ويقول تعالى ذكره ومغفرة من الله ورضوان لأهل الإيمان بالله ورسوله)16. واللون الأصفر هنا ذكر على سبيل المشاهدة بين الحياة الدنيا وما يلقاه الكافر فيها من عذاب، فهو بهذا رمز للخوف والعذاب ومنه الضياع في الآخرة .

مقارنة بين الدلالات المتضادة للونين الأخضر والأصفر:

اللون	دلالاته الإيجابية	دلالاته السلبية
الأخضر	● الحصب و النماء	● دلالة رمزية

<ul style="list-style-type: none"> ● انزياح عن المؤلف بدلالته على البعث 	<ul style="list-style-type: none"> ● النضارة ● حسن المآب ● الجزاء يوم القيامة وهو الفوز بالجنة ● لون الشهادة ● يجلب المسرة والانشرح للنفس 	
<ul style="list-style-type: none"> ● الزوال والاضمحلال والذبول . ● سوء العاقبة يوم القيامة . ● التقرير والتحذير 	<ul style="list-style-type: none"> ● الخروج عن المؤلف للدلالة على المسرة ● قمة النضوج و الإيناع 	الأصفر

● التضاد اللوني الصوري (الخفي): الألوان غير المشخصة :

أولاً: قوله تعالى¹⁷: ﴿وَجُوهٌ يُّومئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يُّومئِذٍ بَاسِرَةٌ ۖ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۖ﴾. لعل هذه الآية تذكرنا لأول وهلة لدى قراءتنا لها بأية أخرى في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ سورة آل عمران، الآية (106). ووجه الشبه بين الآيتين هو أنهما جاءتا في سياق واحد ألا وهو بيان عاقبة المتقين والكافرين، فوصفت الآية الثانية الوجوه بالبياض صراحةً بينما الآية الأولى الممثلة مقصد حديثنا نستشف اللون فيها ضمناً " وهذه وجوه الكفار تكون يوم القيامة باسرة قال قتادة كالحة وقال السدي تغير ألوانها... أي عابسة"¹⁸، فلمس من خلال هذا التفسير إيقونية الكلمة - باسرة - والبسور صفة من صفات اللون. وبهذا التقطنا المدلول الحقيقي لهذه الكلمة أو بالأحرى قارئنا وخدمنا السياق الذي وردت فيه فأحالتنا الملفوظ إلى اللون ضمناً (سيميائية اللون) .

ثانياً: قوله تعالى¹⁹: ﴿وَجُوهٌ يُّومئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يُّومئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ ۖ تَرَهُهَا فَتَرَةٌ ۖ﴾. جاءت هذه الآية الكريمة كقرينة لسابقتها إذ وردتا في نفس السياق وهو الحديث عن صفة من صفات الوجه منعكسةً على ما قاموا به من عمل فيجازى كلٌّ حسب عمله، فالمؤمن يسفر وجهه والكافر يبسر وجهه " فقوله تعالى: (وَجُوهٌ يُّومئِذٍ مُّسْفِرَةٌ) أي مشرقة مضيئة وهي وجوه المؤمنين الذين قد رضي الله عنهم. ويقال أسفر وجه فلان إذا حسن ومنه أسفر الصبح إذا أضاء وكلّ مضيء فهو مسفر... ومسفرة مشرقة"²⁰. لعل دلالة كلمة (مُسفرة) أبعد مما نتصور ففي التفسير قيل أنها مشرقة مضيئة، فبما أنها مضيئة

فهي تحيلنا إلى التور وهو لون البياض؛ لأنّ البياض هو رمز الإشراق والبشر كما في قوله تعالى²¹: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. إبدأً فمؤشّرة الكلمة تحيلنا إلى البياض .

ثالثاً: قوله تعالى²²: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾. تصف لنا هذه الآية الكريمة وجوه الكفّار ولكن بألفاظ مغايرة فقد جاء في تفسيرها "...غبرة أي غبار ودخان، ترهقها تغشاها قتره أي كسوف وسواد... والقتر في كلام العرب الغبار... وقال زيد بن أسلم القتر ما ارتفعت إلى السماء، والغبرة ما انحطت إلى الأرض والغبار والغبرة واحدة"²³. ويقول الفرزدق²⁴: "متّوج برداء الملك يتبعه ثمّ *** موج ترى فوقه الرايات والقتر" وعبر هذا التفسير يتبيّن لنا الدال مع مدلوله، تجمعهما إيقونيّة واحدة فالعلامة منقسمة فالدال بملفوظه (قتره) ومدلوله (السواد)، إنّ معاني القرآن أسمى المعاني فهي ترد في "ألفاظٍ إذا اشتدّت فأمواج البحار الزّاحرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكّر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثّغور تضحك في وجوه الغيب وإنّ أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب"²⁵. فسبحان مسطرّ كلّ لفظ محيي كلّ نبض، جلّ جلاله وارتفع إلى السّماوات العلى كلامه.

رابعا : قوله تعالى²⁶: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾. نفق الآن أمام آخر نموذج إقتطفناه من رياض آي القرآن الكريم، واللّفظه التي شدّت إنتباهنا فيه تعتبر مقصدنا ومرمانا متمثّلة في (المرعى و أحوى) " فقوله تعالى : (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)، الغشاء ما يقذف به السّيل على جوانب الوادي من الحشيش والنّبات القماس وكذلك الغشاء بالثّشديد والجمع الأعثاء... والأحوى الأسود أي أنّ النّبات يضرب إلى الحوّة من شدّة الخضرة كالأسود والحوّة... والحوّة سمرة الشّفة يقال رجل أحوى وامرأة حوّاء وقال أبو عبيدة فجعله أسود من احتراقه وقدمه والرّطب إذا يبس إسودّ، وقال عبد الرّحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر ثمّ لما يبس إسودّ من إحتراقه فصار غشاءً تذهب به الرّياح والسّيول وهو مثل ضربه الله للكفّار لذهاب الدّنيا بعد نضارتها"²⁷، يحمل الحديث في هذا الشّأن هو أنّ: " غشاء يصبح يابساً هشياً. وأحوى : أسود أو أسمر بعد خضرته"²⁸.

I. التدرج اللوني (المرحلي) :

إنّ من الألفاظ السّابقة ما يحيلنا إلى الألوان. فالزّينة مثلاً حلية لفظيّة مادّية فيها جمال متجدّد تجدد الحياة، تعددت ألوانه ومدلولاته وهذا ما نلاحظه في الآيات الآتي ذكرها :

أولاً : قوله تعالى²⁹: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿﴾.

ثانياً : قوله تعالى³⁰: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِمَّنْ نُطْفِئُ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِمَّنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَجْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهيجٍ ﴿﴾.

فمما سبق ذكره لنا أن نمثل لسريان الحياة بالألوان وفق نموذجين :

- **مراحل تطور الطبيعة :** نزول الماء...النبات...الألوان (النماء)...الحصيد
- **مراحل تطور الخلق :** تراب..نطفة..علقة..مضغة...طفل...الأشد...الوفاة



II. التعاقب اللوني (التور والظلام) :

التور والظلام لفظان نقيضان متعاقبان في آن واحد ، وسلطت عليهما الأضواء ليس كلفظين نقيضين فحسب، وإنما كلونين من الألوان غير الصريحة التي تُكسب دالاً ما دلالة اللون لفظاً. فهذان اللفظان يُساقان مساقاً واحداً، فبمجرد تلقننا لكلمة نور يتبادر إلى الذهن نقيضه الظلام. لقد تواتر ذكرهما في الخطاب القرآني عبر آياتٍ مختلفة فهما يمثلان مشهداً من مشاهد هذا الكون المتجددة التي يلونها الليل والنهار، الكواكب والأقمار والظلال والأضواء. فإذا ذكر التور كدالاً تماشت معه مدلولات أخرى: كالإيمان - التورانية - الخير، الحق، الرشد الهداية... هذا عن التور. أما عن الظلام : بما أنه نقيضه فدواله تأتي عكس دوال التور وهي: الكفر، الظلال الشر... فالألفاظ الليل والنهار، الأبيض والأسود متلازمان حتى في الخطاب القرآني ونجد هذا في:

أولاً : قوله تعالى³¹: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْعِجْيِ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

فقبل التوجه للبحث عن دلالاتي كل من النور والظلام في الآيات السابقة نقرن توضيحاً لتلك الدلالات بتصوّرها لها في واقعنا "فكثيراً ما يعتمد إلى عنصر التّضاد اللّوني بالمقابلة بين اللونين الأبيض والأسود ووضع اللون الأبيض في مواجهة الأسود إنعكاساً لثنائية الصّراع بين النور والظلام، وكثيراً ما تكون الغلبة في صالح اللون الأبيض أو في إنتصار الأمل"³². هذه الدلالة لها طبع متأصل في الإنسان فروحهُ الطاهرة تسمو إلى النور والثورانية عكس الإنسان الضال صاحب الأفكار السوداوية والأعمال السيئة، إذ نلني روحه لاتسموا أصلاً؛ بل توأد بين قدميه في ظلمات باطن الأرض تدنّسها شوره وكفره، وترسخ في الذهن البشري أنّ النور هو البياض "فظهره يرمز دائماً إلى إنتصار الخير على الشر، إنه النور الذي يسحق الظلام ويشتر بالأمل والتفائل والإشراق، أو لنقل أنّه المعادل الموضوعي للحياة في جانبها المضيء"³³. ذكر لنا نبي الله أنّه كان يقول: من المؤمنين من يُضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين بصنعاء ودون ذلك حتى إنّ من المؤمنين من لا يُضيء نوره إلاّ موضع قدميه، فالنور ليس واحداً فكلّ ينال حسب ما منحه الله تبارك وتعالى من هذا النور"³⁴. فكلمة النور وفقّ السياق الذي وردت فيه دلّت على الإيمان والفوز بالجنة نتيجة العمل الصّالح في الدنيا

وأما في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الآية(32) "فمثل الكفار من المشركين، وأهل الكتاب الذين جعلوا الله ابناً واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بفمه ولا سبيل إلى ذلك، فهم يريدون أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد صلى الله عليه وسلم بأفواههم الحقيرة بمجرد جدالهم وافتراءهم، وهو النور الذي جعله الله تعالى لخلقهم ضياء، ويأبى الله إلا أن يُعليه ويرفع شأنه ولو كره الكافرون ذلك"³⁵. وهنا إطفاء النور أي إيراد الإظلام، ومنه نشر الضلالة والغي والفساد والجهل بدل الهداية ونور الإسلام، "وهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة، وثمّ لون آخر في صقّه هذا المعنى وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به التية السوداء"³⁶. وقد أظهر في تصوير الكلام لفظة يطفئونها وهي تحيل إلى فتح ثغرات يتسلّل منها الظلام في قلوب العباد .

III. المقابلة الصورية (المشهد) :

أما في قوله تعالى³⁷: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلَا الظُّلُّ وَلَا الخُرُورُ* وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ*﴾. بعد التدبر في الآية الكريمة نلفي مقابلة صورية كالأتي: الأعمى / الظلمات، النور / البصير؛ فمجرد سماعنا لكلمة أعمى تحيلنا دلالتها إلى الإظلام و النظرة السوداوية المعتمة التي لا يخرقها البياض، وكذلك كلمة البصير تحيلنا إلى النور، فالمفارقة بينهما بادية للعيان أي بين الأعمى والبصير، والنور والظلام، وما شدّ انتباهنا ورود الظلمات جمعاً و النور مفرداً و هذا لحكمة الله سبحانه . أما في قوله تعالى³⁸ : ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ*﴾. لاشك أننا لمسنا تلازم اللفظين النور والظلام في هذه الآية الكريمة، والسياق الذي وردت فيه اللفظتان نفهم من خلاله مدلوليهما، وهو أنّ الرسالة المحمدية بأمرٍ من الله لازمتها دلالة النور الذي يسطع على الكون ويضيء مسارب الحياة ومسالكها؛ لكنّ الظلمات فهي دعوة القائلين بأنّ الله هو المسيح عيسى بن مريم فالظلام هنا دلّ على الغي والكفر والضلالة. ومّا نخلص إليه ههنا أنّ لفظتي النور والظلام أخذتا أبعاداً دلالية.

خاتمة:

إنه وبعد الإطلاع والتقصي والبحث لا نزعم ولا نجزم بالقول أننا أُنهينا دراستنا شرحاً وتعقيباً وتنقيحاً لأنّ كلّ عملٍ فنيّ ولو وصل إلى مرحلة الاكتمال إلاّ أنّه يبقى ناقصاً يحتاج لمن يتدارك ذلك النقص ويعبئه، فهنا نحن نخلص إلى بعض النتائج كما يلي :

- أنّ القرآن جاء على لغة أهل الجاهلية وما عهدوه وما ألفوه من مفردات وذلك كلّه لتيسير فهمه وتدبره ، فخطوب الإنسان بالألوان المستمدة من الطبيعة لمدى تأثره بها آنذاك .
- إنّ للألوان أثراً نفسياً في متلقيها متعلقاً بالترهيب والترغيب والوعد والوعيد
- القرآن الكريم متّوجّح بحشد من الآيات القرآنية الحبلية بألفاظ موحية إلى الألوان
- إنّ من التضاد اللوني ما هو صريح لفظياً كالأبيض والأسود والأخضر والأصفر ، ومنها ما هو خفي غير مشخص نلمسه من خلال الإيحاءات .

● إنَّ الألوان بأنواعها الصريحة والضمنية تحمل دلالات تتنوع بين الإيجابية والسلبية تبعاً لتنوع الموضوع والسياق الذي وردت فيه كالتور والظلام وما يحملانه من دلالات ثانوية ك: الخير، السُّلم، العلم، والشرّ، الظلم، الجهل ...

● إنَّ التدرّج في تطور المشاهد و الصور في القرآن الكريم يبني على محاور أهمها:

أ- تطور لوني يسوقنا إلى التدرّج اللوني من الخفيف إلى القاتم

ب- تطور لوني يسوقنا إلى التعاقب بين المشاهد

ت- تطور لوني يسوقنا إلى المقابلات الصورية ، وهي جميعها من سنن الحياة فتعتبر -دراسة اللون ضمنياً- الانطلاقة الفعلية أو من الإرهاصات الأولى لدراسات أخرى حديثة. وهنا تأبى الأقلام الكلام وتهدي السلام وحسن الختام، وتترك المجال لغيرها بأن يقول ويزيد، ويفصّل ويجدّد فعسى الله أن ينعم علينا بالفوز بأعظم الثواب فتبارك الله عالم الغيب وكاشف الرّيب ومعين العبد الضّعيف.

ثبت المصادر والمراجع:

1 كمال الدين عبد الغني المرسي . فواصل الآيات القرآنية . ط 1 . 1420هـ . 1999م . ص 308 .

2 أحمد مختار عمر . اللغة واللون . ص 221 .

3 سورة آل عمران الآية 106 / 107 .

4 سيد قطب . مشاهد القيامة في القرآن . دار الشروق . بيروت ط7 . القاهرة . 1403هـ / 1983م . ص 45

5 القرطبي . تفسير القرطبي . ص 451 .

6 الجزري . أبو السعادات المبارك بن محمد . الإيضاح في علوم البلاغة . ج 1 . ص 332 .

7 القرطبي . الجامع لأحكام التنزيل . دار الكتب العلمية . ج 1 . ص 109 .

8 سورة فاطر . الآية 27 .

9 ابن كثير . تفسير ابن كثير . ج 3 . ص 554 .

10 سورة يوسف . الآية 43 .

11 سورة يوسف . الآية 46 .

12 القرطبي . تفسير القرطبي . ج 1 . ص 211 .

13 سورة الزمر الآية 21 .

14 سورة الحديد الآية 20 .

15 الطبري . تفسير الطبري . ج 23 . ص 208 .

- 16 المصدر نفسه . ج 27 . ص 232 .
- 17 سورة القيامة . الآية 21.22.23.24 .
- 18 ابن كثير . تفسير ابن كثير . ج 4 . ص 451 .
- 19 سورة عبس . الآية 38.39.40.41 .
- 20 الطبري . تفسير الطبري . دط . دار الفكر . بيروت . 1405 هـ . ج 30 . ص 62 .
- 21 سورة آل عمران . الآية 107 .
- 22 سورة عبس . الآية 40.41 .
- 23 القرطبي . تفسير القرطبي . ج 19 . ص 226 .
- 24 نفسه . ج 1 . ص 793 .
- 25 مصطفى صادق الرافعي . كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . دط . دار الكتاب . بيروت . لبنان . دت . ص 30 .
- 26 سورة الأعلى . الآية 4..5... .
- 27 القرطبي . تفسير القرطبي . ج 20 . ص 17 .
- 28 حسنين مخلوف . كلمات القرآن تفسير و بيان . ص 591 .
- 29 سورة يونس . الآية 24 .
- 30 سورة الحج . الآية 05 .
- 31 سورة البقرة . الآية 256 .
- 32 فوزي عيسى . تجليات شعرية . قراءة في الشعر المعاصر . ص 192 .
- 33 نفسه . ص 192 .
- 34 عبد الهادي عبد الله عطية . في نور القرآن عن تفسيره . دط . دار المعرفة الجامعية . 1999 م . الكتاب 12 . ص 169 .
- 35 نفسه . ص 46 .
- 36 مصطفى صادق الرافعي . إعجاز القرآن و البلاغة النبوية . ص 329 .
- 37 سورة فاطر . الآيات 19 . 20 . 21 . 22.23 .
- 38 سورة المائدة . الآيات . 16 .